مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN–2536–0027

الاستذكار القصصي واللاشعور الجمعي في الشعر الجاهلي

أ.د. عواد كاظم لفته
الباحثة لينا خالد عبد الواحد
جامعة ذي قار / كلية الآداب / قسم للغة العربية

ملخص

لقد زخرت الذاكرة الشعرية في العصر الجاهلي بالعديد من القصص التي اكتسبها الشعراء من خلال معاصرتهم لها أو ما تناقلته الأسلاف أباً عن جد، وإعادة صياغتها بقالب شعري دون المساس بجوهرها العام إلا بالتصرف في بعض التفاصيل الفرعية التي عكست براعة الشعراء بحسب الدافع الذي دعاهم إلى استرجاعها والموقف الذي تطلب منهم الرجوع إليها لخدمة الغرض الرئيس الذي يبتغون الوصول إليه، وقد جاء هذا البحث ليقف عند حدود التظافر بين الفن الشعري والقصص الموروثة في قصائد هذا العصر.

Summary

The poetic memory in the per-Islamic era abounded with many stories acquired by poets through their contemporaries with them or what the ancestors transmitted from father to grandfather, and rephrased them in a poetic template without prejudice to their general essence except by dealing with some sub-details that reflected the the ingenuity of poets according to the motive that called them to retrieve them and the situation which you ask them to refer to serve the main purpose that they want to reach.

This research came to stand at the limits of synergy between poetic art and the stories inherited in the poems of this ear.

مقدمة

إن طبيعة الحياة الجاهلية وحاجة العرب الى التعبير عن مجريات حياتهم وتوثيق اخبارهم ووقائعهم ادى الى نشأت الادب شعرا ونثرا، وقد اختلفت اراء النقاد حول اسبقية نشأتهما، فمنهم من رأى ان الشعر وجد قبل النثر، وذهب فريق اخر الى ان النثر اسبق من الشعر[1]، ومن ابرز الظواهر الفنية التي انتجتها البيئة العربية ظاهرة القصة وهي سرد الاخبار والحوادث نثرا، وبما ان الشعر ((هو الوسيلة التعبيرية الاولى عن حياة العرب فمن البديهي أن يتضمن هذا الشعر الواناً من تلك القصص))[2]، ونتيجة لذلك التزاوج تمخض عن ولادة ((جنس ادبي يتداخل في تشكيله نوعين ادبيين مختلفين هما، الشعر والقصة، فبحكم انها قصيدة، لابد ان تكون شعرا وبحكم انها قصصية لابد ان تنقل الينا قصة، فهي شعر وقصة في ان واحد، وبمقدار متساوٍ))[3]، اطلق عليه اسم القصة الشعرية او الشعر القصصي.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN-2536-0027

والشعر القصصي هو استذكار قصة معينة اما حادثة من الحوادث تعرض لها الشاعر في ما سلف من حياته او ابتدعها واستمدها من وقائع التاريخ لينسج خيوطها في قصيدته[4]

وعلى ذلك فهو مرهون بالماضي يعتمد على ذاكرة الشاعر في استدعائه اللاواعي أما بواسطة الخيال أو للموروث الجمعي، اذ ((تعمل الذاكرة بأقصى طاقاتها في جلب الواقعة الماضوية واستدراجها في اللحظة الزمنية المناسبة على نحو يناسب الوضع السردي القائم))[5]

فالشاعر يستدعي ما حفظته الذاكرة العربية من قصص وحكايات ماضية ترسبت عبر الزمن فأصبحت تراث مشترك بين أبناء المجتمع أو ما صنعه خياله الحاذق بصورة غير واعية إلا أنه على دراية كاملة عند صناعة مكونات بنائه الشعري وتهيئة الارضية المناسبة لها من حيث سرد وقائعها واحداثها وتحديد الشخصيات المشاركة في صناعة الحدث بالإضافة الى الحوار الذي تتداوله الشخصيات عند سرد الاحداث ويؤطره بالمكان والزمان المناسبين لاحتواء جميع مكونات عمله، بما يناسب حالته النفسية التي استدعه الى تذكر احداث ماضية ليعبر من خلالها عن تجربة راهنة بأسلوب قصصي .

إذ يلجأ الشاعر الجاهلي إلى التراث ليجتر ما هو شبيه لمعاناته النفسية، فتطالعه قصة المرقش وحبيبته أسماء، فيحرص على استدعائها ويسردها بطريقة فنية بما يناسب ميوله واهواءه:

وقـــــد ذَهَبَـــتْ سلمـى بعَقْلِـكَ كُلِّـهِ ... فهَـلْ غيـرُ صَيـدٍ أحْرَزَتْـــهُ حَبائِلُـــه
كمـــا أحْـــرَزَتْ أسْمـــاءُ قلـــبَ مُـــرَقِّشٍ ... بحُبٍّ كلمْـــعِ البَـــرْقِ لاحتْ مَخايلُـــه
وأنّكَـــحَ أسْمـــاءَ المُـــرَاديُّ، يَبْتَـــغي ... بذلكَ، عَـــوْفٌ أن تُصـــابَ مَقاتِلُـــه
فلمّـــا رأى أنْ لا قَـــرارَ يُقِـــرُّهُ ... وأنّ هَـــوَى أسْمـــاءَ لا بُـــدّ قاتِلُـــه
تَرَحّـــلَ مِـــنْ أرْضِ العـــرَاقِ مُـــرَقِّشٌ ... على طَرَبٍ، تَهْـوى سِـــراعاً رواحِلُـــه
إلى السّرْوِ، أرضٌ ساقه نحوها الهوى ... ولم يَدْرِ أنّ المـوْتَ بالسّـرْوِ غائلُـــه
فغـــودِرَ بالفَـــرْدَيـــن: أرضٍ نَطِيّـــةٍ ... مَسيـــرَةِ شَهْـــرٍ، دائبٍ لا يُوَاكِلُـــه
فيا لكَ من ذي حاجـةٍ حِيـلَ دونَهـا ... وما كلُّ ما يَهـوَى امـرؤٌ هـــو نائِلُـــه
فوجـــدي بسلمى مثـــلُ وَجْـــدِ مُـــرَقِّشٍ ... بأسْمـــاءَ، إذ لا تَستَفيـــقُ عَواذِلُـــه
قضى نَحْبَـهُ، وَجـداً عليهـا مُـرَقِّشٌ ... وعُلّقْتُ مِـــنْ سَلمى خَبـــالاً أماطلُـــه
لعمـري، لمـــوْتٌ لا عقُـــوبَةَ، بَعْـــدَهُ ... لذي البثِّ أشْفى من هـــوىً لا يزَايلُـــه[6]

وتبدأ احداثها عندما أحب المرقش ابنة عمه، فتقدم إلى خطبتها ونال موافقة عمه، ولكن اضطر للسفر إلى بلاد اليمن وفي هذه الأثناء أصاب عمه حاجة فقدم إليه رجل من مراد فزوجه ابنته اسماء وذهب، وعندما عاد المرقش من السفر أخبروه بأنها ماتت ولكن فيما بعد علم بحقيقة الأمر، ثم تتطور الأحداث عندما خرج لطلبها إلى أن تدهورت حالته وأعياه المرض، وفي أحد الأيام مر به راع لزوج اسماء فأخبره بقصته، فعرفها وطلب خاتمه فذهب وأخبرها بما اصابه ليصل إلى نهاية المطاف عندما جاءت إليه برفقة زوجها فاحتملاه ومرضاه حتى مات[7].

لقد شكل الزمن بنية الذكرى، فكان تضمين قصة اسماء والمرقش في قصة طرفة يجعل من القصة الأولى ذكرى ماضية تعاش القصة الثانية على صدى ذكراها اللائطة في الخزين الذاكراتي، مما جعل الزمن يتجه من الحاضر إلى الماضي، ومن الواقع إلى الذكرى، فالحدث المركب للقضيتين يتناوب في بنائه بين الماضي (المرقش) والحاضر (طرفة)، الذكرى (اسماء) والواقع (سليمى)، فيتقنع طرفة زمانياً بالمرقش، وتتكلف سليمى باسماء دلالياً. وتتناص عن القناع الزماني والتكليف الدلالي ذكرى خيالية عنت في خيال الشاعر طرفة.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN-2536-0027

وكما لم يغفل الشعراء الجاهليين استرجاع ما توارث من قصص الأمثال لأنها غالباً ما ترتبط بقصص وحوادث تتصل بحياة الشاعر أو محيطه الاجتماعي، وقد جسدت ذلك الشاعرة الجاهلية عند اشارت إلى قصة المثل القائل (لو ترك القطا لغفا ونام)[8] وسرد أحداثها بأبيات مختصرة:

الا مَـن مبلـغ عمـرو بن هنـدٍ وقـد لا تَعـدم الحسنـاءُ ذامـا
كما أخرجتنـا مـن أرضِ صِـدقٍ تـرى فيهـا لمغتبـطٍ مُقامـا
كمـا قالـتْ فتـاةُ الحيِّ لَمـا أحسَّ جنانُهـا جيشـا لهامـا
لـوالدهـا وأرأتـه بليـلٍ قطـاً ولَقَـلَّ مـا تَسـرى ظلامـا
الست تـرى القطـا متواتـراتٍ ولـو تُـركَ القطـا لغفى ونامـا[9]

اتخذت الشاعرة من الحوار المتخيل مدخلاً لسرد تفاصيل الحكاية، وتمكنت من خلاله الكشف عن الأحاسيس والمشاعر لرسم صورة واقعية في ذهن المتلقي، فيجعل الأحداث وكأنها وليدة اللحظات الراهنة، وقد جسدت ذلك في قولها(كما قالت فتاة الحي لما)، ومن ثم تنتقل إلى عنصر آخر من عناصر البناء السردي وهو المكان المتمثل بـ (الحي) وهو ينتمي إلى الأمكنة الواقعية لترسم ابعاده في ذهن المتلقي وتجعله يتعايش معه بوصفه واقعاً فعلياً معيشاً[10]، ولا تغفل الساردة عنصر الزمن فهو من العناصر الملازمة لمكونات البنية السردية والذي من خلاله تتضح ملامح النص السردي فهو يؤطر مع المكان والشخصيات ويتضح ذلك في قولها (ليل)، أما الشخصيات فهي تتراوح بين نوعين هما الشخصية الرئيسية التي جسدتها (فتاة الحي)، والشخصية الثانوية المشاركة في العمل القصصي الذي جسدها والدها، أما الحدث فتجسد في تنبيه حذام بنت الريان لأبيها وقومها من اقتراب الأعداء بعد أن دار بينهم وبين عاطس بن خلاج وحلفاؤه قتالاً شديداً انتهى بهروب الريان وأصحابه ليلاً فأصبح عاطس وغدا لقتالهم ، فإذا الأرض منهم بلاقع، فأخذ بطلبهم فبلغ معسكر الريان ليلاً فأثاروا القطا ، ولكن قومها لم يلتفتوا إلى قولها وذهبوا إلى مضاجعهم من شدة التعب وداهمهم القوم فهربوا إلى وادٍ قريب وبقوا فيه حتى أصبحوا وامتنعوا عنهم[11] ، إن التداخل القصصي بين قصة الخرنق بنت بدر، وقصة حذام بنت الريان، جعل القصة الثانية (الأنية) تناص من القصة الأولى (الماضوية)، وغدت القصة الأولى حاضنة زمنية للقصة الثانية، ومرجعاً دلالياً لها، فصارت ذكرى لربط الاحداث بين واقع من يسهو ويغفل وماضي من سها وغفل، فكانت الواقعة الماضية ذكرى تلوح في مخيال الشاعرة تتصل بما سيكون لاحقاً من سهوة وغفلة.

وقد استحوذت الاساطير على عناية الشعراء الجاهليين فمضوا الى التاريخ ينقبون في طياته ليستدعوا ما يرتبط بواقعهم من اساطير مصورين احداثها بخيالهم الحاذق ليسردوا قصصها في طيات قصائدهم، لتكون رمزا يعبر عن تجربة راهنة[12]، فقد لجأ الشاعر الجاهلي الى استدعاء اسطورة (ذات الصفا) لسرد احداثها بطريقة فنية رائعة، مذكرا قومه بعدم الائتمان لبني مرة خشية الغدر بهم :

وإني لألقى من ذوي الضّغْنِ منهـمْ وما أصبحتْ تشكو من الوجدِ ساهرهْ
كما لقيتْ ذاتُ الصفـا من حليفهـا وما انفكّتِ الأمثالُ في النّاس سائـرهْ
فقـالت لـه : أدعـوكَ للـعقلِ وافيـاً ولا تغشيَنّـي مـنك بالظّلـمِ بـادِرهْ
فـواثـقـهـا بـالله حيـنَ تراضيـا فكـانت تديـهِ المـالَ غِبـّاً وظـاهـرهْ
فلمّـا تـوفّى الـعقلَ إلا أقلّـهُ وجارَتْ بـه نـَفْسٌ عن الـحق جائـرهْ
تذكـرّ أنّـى يجـعلُ اللهُ جُنّـةً فيُصبـحَ ذا مـالٍ ويقتـلَ واتـرهْ
فلـمـّا رأى أن ثَمّـرَ اللهُ مالَـهُ وأثـّلَ مـوجـوداً وسـدّ مفـاقـرهْ
أكـبّ على فـأسٍ يُجِـدّ غِرابهـا مُـذكّـرةٍ منَ المـعـاوِلِ بـاتـرهْ

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN-2536-0027

فقامَ لـها من فـوقِ جُحـرٍ مُشَيـدٍ ... ليقتلُها أو تُخطىء الكفُ بادرهْ
فلمـا وقاهـا اللهُ ضربـة فأسِـه ... وللبِـرَّ عَيـنٌ لا تُغَمّـضُ نـاظِـرهْ
فقـالَ تعـالَيْ نـجعلِ اللهَ بيننـا ... علـى ما لنـا أو تُنجـزي ليَ أخِـرهْ
فقـالت :يميـنُ اللهِ أفـعلُ إنّنـي ... علـى ما لنـا أو تُنجـزي ليَ أخِـرهْ
أبَـى لـيَ قـبرٌ لا يـزالُ مُقابلـي ... وضربة فـأس فـوقَ رأسـي فـاقِـرهْ[13]

يتشاطر بطولة هذه الحكاية الانسان والحيوان، وتبدأ احداثها عندما طلب احد الرعيان من اخيه ان يرعى اغنامه في وادي مجاور تحرسه حية بعد ان اجدبت ارضهما وقل ماؤها، وقد رفض مخافة ان تصيبه تلك الحية بأذى، لكنه اصر على ذلك ودخل الوادي فقتلته الحية ثم تزداد الاحداث تناميا للوصول الى الذروة بظهور الشخصية الرئيسة المتمثلة (بالأخ) الغاضب الذي يريد الاخذ بثأر اخيه من تلك الحية، وعند رؤيته لها طلبت منه الصلح على ان تعطيه كل يوم دينارا جراء قتلها لأخيه واستمرا على هذا الحال برهة من الزمن حتى زاد ماله وكثرت ابله، فأخذت الاحداث بالتنازل فتذكر ثأر اخيه فتربص للحية فضربها بفأس على رأسها لكنها نجت من الموت، تاركا اثره في رأسها فتركته ورحلت، قاطعة المال الذي كانت تعطيه اياه، فحاول ان يعيد بينهما الود والصفاء ،الا انها رفضت موجهه موجهة خطابها اليه بقولها: (وضربت فأس فوق راسي فاقرة) لتنتهي احداثها برحيل الحية[14]،إن اسطورة التعايش مع من لا يأمن جانبه جعلت المخيال الجمعي ينسج قصصاً حول تلك الدلالة وان تكون تلك القصص مراجع خيالية اكتسبت بوصفها الزمني في عقل الإنسان، فغدت احداثاً ماضية تتأطر في قصص اسطورية يتناوب على الظهور فيها العاقل وغير العاقل، محاولة من الشعراء استنباط الدلالات من ماورائيات العقل، فأعاد المتلقي إلى ثيمة ميتافيزيقية تتجسد في حيازة العقل واللسان من العاقل وغير العاقل، فتتجسد الاحداث بوصفها فعلاً واقعاً في زمن غابر اعترته تحولات كثيرة.

وكما قد يستدعي الشاعر ما حفظته الذاكرة العربية من اساطير ويوظفها بما يخدم اهدافه و منطلقاته الفكرية فاسحاً العنان لخياله أن يجتاح الواقع ويكون جزءاً منه، على ان يكون الشاعر هو بطل القصة التي يقوم بسردها، محافظا على الموائمة بين عناصر بنائها السردي:

أَلاَ مَـن مُبْلِـغٌ فِتيَـانَ فَهْـمٍ ... بِمـا لاقَيْتُ عِنـدَ رَحَـى بِطَـانِ
أَنـيّ قَـدْ لَقِيْـتُ الغُـولَ تَهْـوِي ... بِسَهْـبٍ أَلصَّحِيفَـةِ صَحْصَحَـانِ
فَقُلْـتُ لَهَـا : أَلاَنَـا نِضْـوُ أَيْـنٍ ... أَخُـو سَفَـرٍ فَخَلِّـي لـي مَكَـانِي
فَشَـدَّتْ شَـدَّةً نَحْـوِي فَأَهْـوَى ... لَهَـا أَقْـي بِمَصْقُـولٍ يَمَانِـي
فَأَضْرِبُهَـا بـلاَ دَهَـشٍ فَخَـرَّتْ ... صَرِيعًـا لِلْيَدَيْـنِ وَ لِلْجِـرَانِ
فَقَالَتْ : عُـدْ، فَقُلْتُ لَهَـا رُوَيْـدًا ... مَكَانَـكِ إِنّنِـي ثَبْـتُ الجَنَـانِ
فَلَـمْ أَنْفَـكَّ مُتَّكِئًـا لَدَيهَـا ... لأَنْظُـرَ مُصْبِحًـا مَـاذَا أَتَانِـي
إِذَا عَيْنَـانِ فِـي رَأسٍ قَبِيـحٍ ... أَرَأس الهِـرِّ مَشْقُـوقِ اللِّسَـانِ
وَ سَاقَـا مُخْـدَجٍ وَ شَـوَاةُ كَلْـبٍ ... وَ ثَـوْبٌ مِن عَبَـاءٍ أَو شِنَـانِ[15]

ومن الواضح أن الشاعر اتخذ الحدث القصصي وسيلة للتذكير بالصعوبات والعوائق التي يواجهها الصعلوك في واقعه المتأزم في ظل حياة التشرد والضياع، فابتدأ أحداث نصه الشعري بتصوير لقائه مع الغول في تلك الأرض الواسعة الجرداء فلم يجد أمامه سبيل سوى المواجهة، ثم يصور الحوار الذي دار بينهما، والذي اكسب النص نوعا من الانفعال والحيوية تبعاً لحالته النفسية، فهو يعلم بأساليب الغول في المراوغة والخداع، فيدعوها إلى المسالمة ولو إلى حين، فكلاهما منهك من عناء السفر، فيلقى استجابة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN-2536-0027

منها، ثم تأخذ الأحداث بالتنامي لتصل إلى ذروتها عندما باغتها فضربها ضربة سقطت على إثرها، فطلبت منه أن يستزيد، فأبى ذلك لأنه كان على علم بأن الضربة الثانية ستحييها واخيراً يصل السارد إلى نهاية قصته عند انبلاج الصباح حتى يرى ماهية هذا الكائن فيجد أمامه مخلوق بشع الهيئة له عينان في رأس قبيح وجسم رث المنظر، فالغول من المخلوقات الأسطورية التي حفظتها الذاكرة العربية وتجسدت صورته البشعة في اذهانهم بما تثير الخوف والهلع في نفوسهم. إن اشتغال الذاكرة تحول من الفعل إلى الفاعل، فكانت شخصية الغول الخيالية تجسيداً للفاعل الغرائبي الاسطوري الذي يمكن ان يعود إلى الحياة بطريقة استثنائية بتكرار ضربه، وان يكون موته في ضربة واحدة فقط، وما كان الاستدعاء النصي لشخصية الغول إلا دليلاً على ما رسخ في الذاكرة الجمعية من انها كائن خيالي لا يتجسد في شكل ثابت ولا يموت موتاً اعتيادياً، على ان هذا الشكل والهيأة ونظام العيش صنع خيالياً ولا يمكن ان يكون له مصادقاً في ارض الواقع فكان الفاعل يستدعى خيالياً، وتنسج حوله أخبار غرائبية توظف في اظهار البطولة الفردية غالباً، مما أوجب على الشاعر الارتحال بذاته إلى زمن الذكرى في اثبات بطولته، فدلف إلى زمن يتحايث فيه الانسان والغول عبر استرجاعات خيالية اسطورية.

كما يأخذ الفكر الديني مساحة وافية من ذاكرة الشعراء الجاهليين اصحاب الديانات السماوية، فأخذوا يسترجعون قصص الرسل والانبياء والامم الغابرة التي ورد ذكرها في معتقداتهم الدينية مضمنيها قصائدهم للتذكير واستخلاص العضة والعبرة من مجريات احداثها[16]، ويتضح ذلك من خلال السرد القصصي للشاعر الجاهلي الذي استرجع فيه قصة النبي لوط (عليه السلام) وقومه قائلاً:

ثم لـــوط اخـــو ســـدوم اتاهـــا — اذ أتـاها برشدهـــا وهداهـــا
راودوه عن ضيفـــــه ثم قالـــوا — قد نهينـــاك ان تقيم قِـراهـــا
عرض الشيـخ عند ذاك بنـاتٍ — كظبـــاءٍ بأجـــرع ترعـــاهـــا
غضب القوم عند ذاك وقالـــوا — ايها الشيخ خُطبـــــة نأباهـــا
أجمع القـوم امـــرهم وعجـــوزٌ — خيّـــبَ الله سعيـــها ولحاهـــا
أرســل الله عنـــد ذاك عذابـــاً — جعل الأرض سفلـــها أعلاها
ورماهـا بحـاصبٍ ثـــم طيـــنٍ — ذي حروفٍ مسوَّمٍ إذ رمـاها [17]

تتجلى ملامح البناء القصصي في مجمل النص الشعري، إذ يبرز دور الشخصية الرئيسة الذي جسده النبي لوط (عليه السلام)، اما القصة فهي دينية محضة تدور احداثها بين النبي لوط وقومه بعد أن بعثه الله سبحانه وتعالى الى قومه حاثاً لهم بالهداية والصلاح، فتتنامى الاحداث عندما راودوه عن ضيفه فأبى أن يمتثل لأمرهم، عارضاً عليهم بناته، بغية أن لا يصيبهم عذاب من الله، إلا أنهم جابهوه بالرفض وعدم الانصياع له، فسأل الله أن يصيبهم العذاب بما صنعوا، فكانت نهايتهم الهلاك بأن جعل الله اسفلها اعلاها. اما الحوار فيتضح من خلال الحديث الذي دار بين لوط وقومه (وقالوا ايها الشيخ خطة نأباها) ويستدعي الشاعر في بنائه القصصي عنصر المكان المتمثل ب(قرية سدوم) وهو مكان واقعي، اما عنصر الزمان فهو الوقت الذي بعث الله فيه النبي لوط، وبذلك استوفى النص شروط البناء القصصي بمنتهى الدقة والمهارة. إن القصة الدينية وقعت في زمن غابر بالنسبة لزمن الشاعر اذ كان نبي الله لوط في زمن ماض، وقد استدعاه الشاعر بوصفه فاعلاً في النص الذي يحيل على ذكرى غابرة تحيلنا على ثيمة الوفاء والاجارة.

وقد اتضح عند الاطلاع على نصوص جاهلية قدرة الشعراء الفائقة على انتزاع قصص تاريخية مستوحاة من البيئة العربية واعادة صياغتها على هيئة قصص شعرية، فالشاعر قد يجد في احداث الماضي

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN-2536-0027

ما يرتبط بتجربة حياتية راهنة، فيهرع اليه مستلهماً أحداثه للاحتذاء بها ومتنفسا ينتشله من واقعه الراهن[18]. ومن ذلك البناء القصصي للشاعر الجاهلي عند استرجاعه لواقعة تاريخية مشهورة في الجاهلية:

وَجُنْـدُ كِسْرَى غَدَاةَ الحِنْـوِ صَبَّحَهُمْ ... مِنّا كَتَائِبُ تُزْجِى الْمَوْتَ فَانْصَرَفُـوا
جَحَـاجِحٌ وَبَنُـو مُلْـكٍ غَطَـارِفَـةٌ ... مِـنَ الْأَعَاجِمِ فِى اذَانِـهَا النَّطَـفُ
إِذَا أَمَالُـوا إِلَى النَّشَّـابِ أَيْدِيَـهُمْ ... مِلْنَـا بِبِيضٍ فَظَلَّ الْهَـامُ يُخْتَطَفُ
وَخَيْـلُ بَكْـرٍ فَمَـا تَنْفَـكُّ تَطْحَنُهُمْ ... حَتَّى تَوَلَّـوْا وَكَـادَ الْيَـوْمُ يَنْتَصِفُ
لَـوْ أَنَّ كُلَّ مَعَـدٍّ كَـانَ شَـارَكَنَـا ... فِى يَوْمِ ذِى قَارَ مَا أَخْطَاهُمُ الشَّرَفُ
لَمَّـا أَتَوْنَـا كَـأَنَّ اللَّيْـلَ يَقْدُمُهُـمْ ... مُطبِّقَ الْأَرْضِ يَغْشَـاهَا بِهِمْ سَدَفُ
وَظْعْنُنَـا خَلْفَنَـا كُحْـلاً مَدَامِعُهَـا ... أَكْبَادُهَـا وُجُفٌ مِمَّـا تَـرَى تَجِفُ
حَـوَاسِرٌ عَنْ خُـدُودٍ عَايَنَتْ عِبَـراً ... وَلَاحَهَـا وَعَلاهَـا غَبْـرَةٌ كُسُفُ
مِنْ كُلِّ مَرْجَانَةٍ فِى الْبَحْرِ أَخْرَجَهَـا ... غَوَّاصُهَا وَوَقَاهَـا طِينَهَـا الصَّدَفُ[19]

إذ يفتتح الشاعر قصته الشعرية بوصف أحداث يوم ذي قار عندما صبحت كتائب قبيلة بكر جنود كسرى حاملين الموت اليهم، حتى انصرفوا وهم في غاية الخوف والذعر من قوة المواجهة فإذا مالوا بأيديهم إلى النشاب مال العرب بأيديهم إلى السيوف ليخطفوا هاماتهم. ثم يمضي في تصوير زحف جيوش الفرس إلى ارض المعركة كأنها الليل الذي يسد افاق الارض من حيث العدد، كما يذكر اصطحابهم للنساء الذي احد الاسباب التي تجعل العربي يستبسل في القتال للدفاع عن عرضه وشرفه لينهي احداثها بانتصار العرب في هذه الواقعة واندحار جيوش الأعداء[20]، عمد الشاعر على استدراج احداث القصة التاريخية في الزمن الأني لكونها تمثل مرجعاً دلالياً قاراً في الذاكرة الجمعية الجاهلية لارتباطه في البطولة القومية، إذ عملت الذاكرة على استدعاء احداثها خيالياً للتغني بالانتصارات والامجاد الماضية، وبذلك ادت الذكرى المهمة المنوطة بها من الدلالات التي اراد الشاعر أن ينقلها إلى المتلقي. وايضاً البناء القصصي للشاعر الجاهلي الذي جسد تجربته الشخصية حيث ابتدئه بخطاب اني توجه به الى ذوي سلطان جائر وعلى الاغلب النعمان بن المنذر الذي امر بسجنه[21]، ثم توقف مستعملاً تقنية الاسترجاع ليخوض في غمار الماضي ل ويقتطف من وقائع التاريخ قصة (الزباء) ويسردها من خلال ابياته بمهارة عالية بغية التأثير في المتلقي بقوله :

أَلَا أَيُّهـا المُثْـرِي المُزَجَّـى ... أَلَـمْ تَسْمَـعْ بِخَطْـبِ الأَوَّلِينَـا
دَعَـا بِالبقَّـةِ الأَمْـرَاءَ يَـوماً ... جَذِيمَـةُ عَصْرَ يَنْجُـوهُمْ ثَبِينَـا
فَلَم يَـرَ غَيْرَ مـا ائتَمَـرُوا سِـوَاهُ ... وشَدَّ لِرَحلِـهِ السَّفَـرَ الـوَضِينَـا
فَطَـاوَعَ أَمْـرَهُم وعَـصَى قَـصِيـراً ... وكانَ يَقولُ لَـو تَبَـعَ اليَقِينَـا
لِخُطَّبَتِـهِ الَّتي غَـدَرَتْ وخَانَـتْ ... وهُـنَّ ذَواتُ غائِلَـةٍ لُحِينَـا
وَدَسَّـتْ فِـي صَحِيفَتِهـا إِلَيْـهِ ... لِيَمْلِـكَ بِضْعَهـا ولأَن تَدِينَـا
فأَردَتْهُ ورَغْـبُ النَّفْـسِ يُـرْدِي ... ويُبْـدِي لِلْفَتَى الحَيِـنَ المُبِينَـا
وخَبَّرَتِ العَصَـا الأَنْبـاءَ عَنْـهُ ... ولَمْ أَرَ مِثْـلَ فارِسِهـا هَجِينَـا
فَفَاجَأَهَا وقَـدْ جَمَعَـتْ جُمُـوعـاً ... عَلَى أَبْـوابِ حِصـنٍ مُصلِتِينَـا
وقَـدَّمَـتِ الأَديـمَ لِـراهِشَيْـهِ ... وأَلْفَـى قَوْلَهـا كَذِبـاً ومَيْنَـا
ومِن حَـذَرِ المُـلاوِمِ والمَخَـازِي ... وهُنَّ المُنْدِيـاتُ لِمَـنْ مُنِينَـا

CAMBRIDGE SCIENTIFIC JOURNAL

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN-2536-0027

أَطَـــفَّ لِأَنْفِـــهِ المُوسَى قَصيـــــرٌ ... لِيَجْدَعَـــهُ وكـــانَ بـِهِ ضَنينـــا
فَأهـــــواهُ لِمَـــارِنِـــــه فَـــأَضحَـــى ... طِلَابَ الوِتْرِ مَجْدُوعـاً مَشينـــا
وصَادَفَتِ امـرِأً لَـمْ تَخْـشَ مِنـــهُ ... غَوائِلَـــــهُ ومـــا أَمِنَت أَمينـــا
فَلَمَّـــا ارتَـــدَّ منـــهُ ارتَـــدَّ صُلْبـــاً ... يَجُـرُّ المـالَ والصَّـدْرَ الضَّعينـا
أَتَتْهَا العِيسُ تَحْمِـــلُ مـــا دَهَـاهَـــا ... وقِنـــعٌ في المُسُـــوحِ الدَّارعينـــا
ودَسَّ لَهَـــــا عَلَى الأَنْقَاءِ عَمْـــــراً ... بِشِكَّتِـــه ومـــــا خَشِيَتْ كَمينـــا
فَجَلَّلَهـــا قَديـــمَ الأَثْـــرِ عَضبـــــاً ... يَصِلُّ بـــــهِ الحَواجِبَ والجَبينـــا
فأَصْحَت مِن خَزائِنِهـــا كـــأَنْ لَـــم ... تَكُـــن زَبَّـــــاءُ حامِلَـــةَ جَنينـــا[22]

إذ يتضح اتقان الشاعر لأسلوب القصص الترتيب الزمني المتسلسل بخطية افقية في ترتيب الاحداث، كانت الزباء إحدى ملكات الجزيرة، والتي استخلفت والدها بعد مقتله على يد جذيمة الابرش، فلما استحكمت ملكها واستجمعت امرها عزمت على الاخذ بثأر ابيها، بغزو جذيمة الابرش، وكانت لها اخت عاقلة حذرتها عن القيام بهذا الامر، فعدلت عنه باستعمال الحيلة والدهاء، فيصور مشهده الاول بغاية المهارة، عندما ارسلت اليه بكتاب تدعوه لنفسها وملكها لأنها امرأة لا تستطيع الحفاظ عليه، وتريد ظم ملكه الى ملكها ويكون ملكا عليهما معا، فلما انتهى كتابها اليه استخف بها و جمع الثقاة من قومه لمشاورتهم في الامر، فوافقوا الا رجلا يدعى (قصير) وكان عاقلا ناصحا لجذيمة مقربا عنده، عارض ذهابه اليها، وأحس ان في الامر مكر وخديعة، إلا ان جذيمة اصر على الذهاب، مستخلفا على ملكه ابن اخته (عمرو بن عدي)، وسار اليها بخيوله وجنوده فلما اصبح على مقربة من ملكها بعثت برسلها لاستقباله بالهدايا، حتى اطمئن لها وسار تحيط به الخيول حتى دخل على الزباء، فأحس بالخديعة، فسقته خمرا حتى ثمل، ثم جاءت بسيف فقطعت اوداجه، ثم جمعت دمه في طشت حتى مات . فلما علم قصير بالأمر هرب متجها نحو الحيرة ليبلغ عمرو بن عدي ويحرضه على الاخذ بثأر خاله من الزباء، وكان للزباء كاهنة اخبرتها انها سوف تلقي حتفها على يد عمرو بن عدي، فأوجست خيفة فأمرت بعمل نفق من مجلسها الى حصن لها داخل المدينة، حتى إذا فاجأها أمر هربت منه الى حصنها، ثم دعت مصورا حاذقا في التصوير وطلبت منه أن يذهب الى عمرو بن عدي متنكرا ويصوره جالسا وقائما وراكبا ومتفضلا ومتسلحا ففعل ما طلب منه بمهارة، وقال قصير لعمر: اجدع انفي واضرب ظهري ودعني والزباء، ففعل به ما أراد، ثم هرب الى الزباء واستطاع خديعتها بما فعله عمرو به، فأكرمته واصابت بما يعلم من امور الملك، وبعد أن ثقتها طلب منها الذهاب الى العراق لجلب أمواله فوافقت على ذلك، فاتجه نحو العراق لمقابلة عمرو بن عدي طالبا منه أن يمده بالأموال والهدايا للزباء، فجهزه عمرو بن عدي بما أراد لكسب ثقة الزباء عند عودته اليها، ففعلها مرة ثانية وفي الثالثة عاد اليها محملا الجمال بالرجال، ودخلت الإبل إلى المدينة فاتجه قصير نحو نفق الزباء ليخبر عمرو عن مكانها، وعندما ارادت الهرب شاهدت عمرو عند باب النفق فضربها بالسيف وقتلها واستولى على حكمها[23]، ثم يصل إلى ثمرة القصة ليودعها في نهاية نصه الشعري:

وأَبـــرَزَهـــا الحَـــوادِثُ والمَنايـــا ... وأَيُّ مُـعَـــمَّـــرٍ لا يَـبُـتَّـلِـيـنـــا
إذا أَمْـهَـلْـــنَ ذا جَـــدٍ عَظيـــمٍ ... عَطَفْنَ لَـهُ ولَـوْ فـي طَـيِّ حِينـــا
أَلَـــمْ تَـرَ أَنَّ ريبَ الدَّهْـــرِ يَعْلُـــو ... أَخَا النَّجَداتِ والحِصْنَ الحَصينا
ولَمْ أَجِـدِ الفَتَى يَلْهُـو بشَـــيءٍ ... ولَـوْ أَثْـــرَى ولَـــوْ وَلَـــدَ البَنينـــا[24]

فيجد ان من يعمل بالحيلة والدهاء نهايته الضياع، كما فعلت الزباء عندما احتالت على جذيمة ولقت مصيرها المحتوم على الرغم من ملكها الواسع وتمكنها المادي، بأسلوب يملأه التوهج والإشراق والقدرة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN–2536–0027

العالية على الانفعال اتجاه الموضوع الذي يعالجه بالتأمل في قصص الغابرين وأحوالهم لأخذ العظة والاعتبار منها للأحياء[25]، إذ شكل التاريخ بشخصياته شائعة الصيت معيناً قصصياً للشعراء الجاهليين، فكانت اخبار السالفين وملوكهم وممالكهم تشكل زمناً حافلاً بالأحداث التي يمكن ان يستقصيها الخيال، ويوظف احداثها للاعتبار بوصفها مادة ذاكراتية قابعة في مخيال المتلقي تحيل على حادثة صارت ناقوس تذكير لكل من يستعمل الحيلة والمكر، وغدت افعال الحيلة والمكر ترتد إلى مرجعية دلالية لها تكمن في قصة الزباء وجذيمة بن الابرش.

الخاتمة

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث :

تنوع ذكريات الشعراء الجاهليين بتنوع القصص المستدعاة بواسطة الذاكرة فنجد ذكريات القصة الموروثة التي استوعبت معاناة الشعراء العاطفية والنفسية، كما برعوا في استدعاء ما توارث من قصص الأمثال والقصص الأسطورية والدينية والتاريخية وصياغتها صياغة فنية دون الاخلال بهيكلها العام إلا في بعض الجوانب الفرعية وسردها في اشعارهم منتقين عناصر بنائها السردي بما يخدم اهدافهم الشخصية والاجتماعية .

الهوامش

(1) ينظر : من حديث الشعر والنثر، طه حسين: 21- 23 .

(2) السرد القصصي في شعر ما قبل الاسلام، حاكم حبيب الكريطي: 16.

(3) الدلالة في تداخل انماط السرد القصصي في الشعر النسوي الجزائري، طارق ثابت: 136.

(4) ينظر: الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام: 90.

(5) جماليات التشكيل الروائي، د. محمد صابر عبيد ود. سوسن البياتي: 208 .

(6) ديوان طرفة بن العبد: 64.

(7) ينظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين: 99.

(8) مجمع الأمثال:2/ 123.

(9) ديوان الخرنق بنت بدر: 52.

(10) ينظر البنية السردية في شعر الصعاليك، ضياء غني لفته" اطروحة دكتوراه"، جامعة البصرة، كلية التربية، 1426ه: 99.

(11) ينظر : مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المتوفي (518): 123/1.

(12) ينظر : توضيف الأسطورة في الشعر الجاهلي، د. وهبي رومية، مجلة التراث العربي، ع93-94، 1يناير 2004: 38.

(13) ديوان النابغة الذبياني: 120- 121.

(14) ينظر : السرد القصصي في الشعر الجاهلي: 241- 242.

(15) ديوان تأبط شرا: 74- 75.

(16) ينظر السرد القصصي في الشعر الجاهلي: 253.

(17) ديوان امية بن أبي الصلت: 169.

(18) ينظر: السرد القصصي في الشعر الجاهلي: 244- 245.
(19) ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس: 347
(20) ينظر : السرد القصصي في الشعر الجاهلي/ 252.
(21) ينظر : الشعر والشعراء، ابن قتيبة: 228- 229
(22) ديوان عدي بن زيد: 181- 182.
(23) ينظر : الكامل في التاريخ (تاريخ ابن الاثير)، الإمام العلامة المحدث النسابة عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني الشهير بابن الاثير المتوفي (555- 630ه): 99- 100.
(24) ديوان عدي بن زيد: 184.
(25) ينظر: عدي بن زيد الشاعر المبتكر، د. محمد الهاشمي، 161.

المصادر

- أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيار العلامة يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشمنتري(415- 476ه)، دار الأفاق الجديدة، بيروت،ط3، 1403ه- 1983م،ج1.
- البنية السردية في شعر الصعاليك، ضياء غني لفته" اطروحة دكتوراه"، جامعة البصرة، كلية التربية، 1426ه.
- توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي، د. وهبي رومية، مجلة التراث العربي، ع93- 94، 1يناير 2004.
- جماليات التشكيل الروائي، د. محمد صابر عبيد ود. سوسن البياتي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2008.
- الحياة الأدبية في عصر الجاهلية وصدر الإسلام، د. عبد المنعم خفاجي و د. صلاح الدين محمد عبد التواب، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- الدلالة في تداخل انماط السرد القصصي في الشعر النسوي الجزائري، د. طارق ثابت، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة عباس لغرو، الجزائر، ع2، ديسمبر 2016م.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح: د. محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.
- ديوان امية بن أبي الصلت، المكتبة الاهلية في بيروت، ط1، 1352ه- 1935م.
- ديوان تأبط شرا، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 1424ه- 2003م.
- ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1410ه- 1990م.
- ديوان طرفة بن العبد، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 1424ه- 2003م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق: محمد جبار المعيبيد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1385ه- 1965م، سلسلة كتب التراث 2.

- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البتاني، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1393ه- 1963م.
- السرد القصصي في الشعر الجاهلي، أ. د. حاكم حبيب عزر الكريطي، تموز طباعة . نشر. توزيع، دمشق، 2011، ط1.
- الشعر والشعراء، تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، دار احياء العلوم بيروت، ط3، 1407ه-1987م.
- عدي بن زيد الشاعر المبتكر، محمد علي الهاشمي، نشر وتوزيع المكتبة العربية محمد تلالايني، حلب، ط1، 1387ه- 1967م.
- الكامل في التاريخ (تاريخ ابن الاثير)، الإمام العلامة المحدث النسابة عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني الشهير بأبن الأثير المتوفي (555- 630ه)، بيت الأفكار الدولية، الأردن- السعودية.
- مجمع الأمثال، أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني المتوفي (518ه)، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للاستانة الرضوية المقدسة، ج2.
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط1.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN–2536–0027

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد التاسع عشر– آذار 2023 – شعبان 1444
ISSN–2536–0027